الفنان الثوري

بقلم سالم جبران

كثيرا ما يكتب النقاد البرجوازيون في معرض دفاعهم عن « حرية » الفنان المطلقة انه من غير الممكن ان نناقش الفنان حول موضوعه ولا حتى حول كيفية عرض موضوعه .. ومن غير الممكن ان نطالب الفنان بتصوير الواقع ، لان الفن ليس ـ اصلا ـ انعكاسا للواقع بل لذات الفنان ، هذه الذات الحرة تماما ان تنسلخ عن الواقع ، ان تتجاهله ولا تعترف بوجوده . وكثير من المدارس النقدية البرجوازية المعاصرة يقول ان الفنان لا ينتج للمجتمع ، وان الفن ليس اكثر من عملية « تجلي الذات للذات » . باختصار : يضعون الذات في تناقض تام صارخ مع « المجموع » ، مع المجتمع .

وهذا المنطلق الفكري ضروري للنقد البرجوازي لتبرير مختلف الموضات الادبية والفنية البرجوازية المعاصرة ، لتبرير عزل الفنون عن ساحة المعارك الاجتماعية التي تهز عصرنا وكوكبنا .. فهل الفنان ، فعلا، يعكس في فنه ذاته فقط ؟ وهل الفن هو نتاج النزوات الطارئة والعواطف ، فقط ؟ وهل صحيح انه لا توجد حقيقة موضوعية ، لا توجد مقاييس جمالية موضوعية في النقد الفني ؟

***

يتناسى النقاد البرجوازيون ، احيانا ، وهم يتحدثون عن الذات وعن المجموع ان المجموع ليس في حقيقة الامر الا **مجموع الذوات** وان الذات ليس الا **جزءا من المجموع** . ان مصالح الذات قد تتناقض مع مصالح المجموع ولكن هذا هو تناقض الجزء مع الكل ، وجنبا الى جنب مع التناقض توجد المصالح المشتركة . من هنا ، فان التناقض بين الذات والمجموع ليس تناقضا عدائيا . **ان طمس ذاتية الفن ، خاصيته ، طمسا تاما في سبيل المجموع هو خطأ مثل المبالغة المطلقة في ذاتيته ووضعها في تعارض مع المجموع** . والفنان الحقيقي هو الذي يعرف مكانه في المجتمع ويفهم علاقته الديالكتيكية بالمجموع وبحركة التاريخ ، يؤثر عليهما ويكيف نفسه لمتطلباتهما في نفس الوقت . ومن السخف الذي لا يصمد للجدل ان يدعي احد ما ان بامكان الفنان ان ينعزل عن العالم ، ان يتجاهله وان الفن هو نتاج الذات الباطنية المنسلخة عن الواقع . ان اي فنان ، مثل اي انسان يدخل في علاقات اجتماعية كثيرة ومتشابكة ، مع الناس ومع المجتمع .. في صراع مع هذا وفي تحالف مع ذاك .. وفي اطار فرز المصالح في المجتمع الى مصالح طبقية فليس في مقدور اي فنان ان يكون « حياديا » .. فهو مدعو ، بالضرورة ، الى اتخاذ موقف . وفي مجال عمله الابداعي فان موقفه الطبقي والفكري والايديولوجي والفلسفي يكون خلفية عامة ، ينبت فوقها عمله الادبي او الفني . وحتى اولئك الفنانون الذين يقولون بانعزال الفن عن الحياة ويقدمون طلاسم فنية انما يعكسون موضوعيا ، نفسية الطبقات الحاكمة الرجعية المتفسخة فكريا واخلاقيا ، والتي ـ حين لم تعد بحاجة الى الكشف، الى التفتيش عن مستقبل ـ تغرق في وحل اللاعرفانية .

ان التاريخ كله ، وتاريخ الفنون ايضا ، يؤكد ان الطبقات التقدمية كانت دائما متمسكة بالجانب العرفاني للفن ، ترى في الفن سلاحا لكشف العالم ـ من اجل تغييره ، بينما الطبقات الرجعية تكتفي بمطالبة الفن ان يكون مسليا ، ملذا . والصراع الضاري في عصرنا حول الفن ، ماهيته واهدافه ، ليس جديدا .

ان الفن الخالد عبر العصور هو الفن الذي تمكن ان يكشف **جوهر عصره** ، ان يكشف الطابع المتناقض للواقع ، وان يشير الى القوى الغاربة والقوى الصاعدة ، متحيزا الى القوى النامية ، الجديدة، التقدمية . ولا شك ان كشف الفن للنفس الانسانية لنقاط ضعفها وقوتها ، انحطاطها ونبلها ، هو ايضا انعكاس

للواقع المادي .. كل الفنانين الكبار عبر التاريخ كانوا فنانين في جبهة القوى الاجتماعية الصاعدة ، ومن هنا ، فصحيح تماما التأكيد ان احدى الميزات الاساسية للفن الانساني عبر مسيرته ، كانت رفض الاستسلام للواقع ، معارضته من جهة واستكشاف المستقبل من جهة اخرى. ان تحسس القادم قبل قدومه والاندماج بحركة التاريخ بحيث تصبح قضية المجموع هي هي القضية الفنية للذات ـ هما ميزة من صميم ميزات الفن وهذه الميزة هي **ميزة عرفانية** . ولكن الفنان الحقيقي العارف والموهوب معا ، كان يقدر دائما ان يظهر جمال عملية سير التاريخ قدما ، جمال التفتيش عن المستقبل .

وهل نرى الفرق بين العلم والفن . العالم ، حين يصل الى الاستنتاجات العلمية ، بعد التجارب الطويلة والعميقة ، يقدم خلاصة ، استنتاجا ،نظرية علمية صرفة لا دخل لذاته فيها . بينما في الفن القضية تختلف تماما. الفنان يتناول الظاهرة « النموذج الاجتماعي » بالدراسة والتشريح ، يهضم فكريا وعاطفيا جوهر الظاهرة ، يتلقى انعكاس الظاهرة في وجدانه . وهو لا يقدم هذا الانعكاس كما هو ، في عمله الفني ، بل ان الانعكاس يتفاعل مع ذات الفنان . الفنان ليس مصورا يتلقى الانعكاس ويرده ، ليس ناقلا سلبيا ، ولكنه « يتعامل » مع الانعكاس ، يغيره ، ويقدم عملا هو **موضوعي وذاتي معا** ، هو مزيج من انعكاس الواقع الموضوعي والاحساس الذاتي للفنان .

من هنا فصحيح تماما القول ان احداث الرواية الناجحة ـ لم تحدث في الماضي ولا يمكن ان تحدث في المستقبل ، مع انها قد تكشف الظلال في الماضي وتسلط الضوء على المستقبل .

والتغير المستمر للواقع من جهة ولنفسيات الناس من جهة اخرى هو الضمان الاكيد بسخف كل النظريات التي تقول ان الادب والفن يواجهان عملية .. الانقراض .

***

قد يطرح سؤال : اذا كان الامر كذلك ، واذا كانت ذات الفنان تتدخل في انعكاس الواقع في وجدانه ، فالفن ليس حامل حقيقة موضوعية وبالتالي فليس الفنان مطالبا بتقديم الحقيقة .

وهذا الراي يتناسى ان ذات الفنان ليست مستقلة عن الواقع هي ايضا ، وان مزاجه وشعوره ورغباته يحددها مجموع علاقاته مع المجتمع ومصالحه التي هي ، في آخر الامر ، مصالح طبقية . من هنا فذات الفنان تعكس موقفه من المجتمع ، وطريقة تفاعله مع الواقع تعكس موقفا فلسفيا طبقيا مع العالم .

الفنان الرجعي يتفاعل مع جزء من الواقع ويؤثر على المجتمع في اتجاه **المحافظة على الوضع القائم ، تخليد العلاقات القائمة** ، بينما الفنان الثوري يتفاعل مع الواقع في مجموعه ، في شموله ، ومن خلال النظر الى الجوانب المتناقضة للواقع ، يرى بذور الجديد في القديم ، يرى صعود القوة التقدمية حتى وهي في الجنين ويرى انهيار الشائخ حتى ولو كان في أوج تسلطه .

الفنان الثوري يصور الواقع تصويرا موضوعيا ، بمعنى رؤية القوى الصاعدة تاريخيا .. من هذه الزاوية فالرغبة الذاتية للفنان الثوري تتفق ـ وتصل احيانا الى حد الالتحام ـ بحاجات التطور الموضوعية .

ان غوركي في رواية « الام » لم يقدم عملا فنيا رائعا وحسب **بل قدم عصارة مركزة لحقيقة اتجاه التاريخ في روسيا** . وقبل غوركي ، فان تولستوي ودستويفسكي وتشيخوف ، من خلال تشريح الواقع تشريحا فكريا ـ فنيا ، **قدموا في مجموع ادبهم ادانة فكرية وسياسية وخلقية للمجتمع القيصري الروسي** ، وبشروا بحتمية ميلاد جديد ما ، افضل من الموجود ، حتى ولو كان هذا بالنسبة لهم غامضا ، مبهما .

وهذا التحليل يمكن القيام به بالنسبة لادب كل شعب وشعب ، كل مرحلة ومرحلة . ان دراسة عميقة « ليوميات نائب في الارياف » و « عودة الروح » كافية ليس فقط لاخذ صورة صادقة عن المجتمع المصري في فترة كتابة توفيق الحكيم لهاتين الروايتين العظيمتين ، ولكن ايضا لفهم موقف الحكيم من الواقع الذي يصوره . وليس صعبا ملاحظة ادانة الحكيم للواقع التعيس الذي يصوره ، وتبشيره ، بالتلميح الفني ، بحتمية ميلاد قوة جديدة ، بحتمية التغيير . وهنالك امكانية لتقديم امثلة بدون حدود ، على هذا . وليس صدفة ان ماركس كتب مرة ، ان من الممكن دراسة المجتمع الفرنسي في عهد بلزاك من خلال رواياته احسن مما يمكن ذلك اعتمادا على

صدر حديثا

صفيح تحت الشمس

شعر بشير قبطي

نماذج رفيعة من شعر المقاومة الفلسطينية

الثمن ٢٠٠ ف . ل

كتب المؤرخين الفرنسيين في تلك الفترة . وهذا الصدق في تقديم الحقيقة الموضوعية لم يفقد بلزاك القدرة على الاخلاص للفن والاهتمام بالجانب الفني ـ الجمالي لعمله الادبي .

***

وليس صعبا ملاحظة ان ثمة توازنا معينا بين الجانب العرفاني والجانب الجمالي في العمل الفني الجيد . ان عملا « يوجه » القاريء بدون ان يربي في احساسه القدرة على تذوق الجمال ، القدرة على ان يحلم بما هو اجمل من الموجود ، هو **كرز سياسي** غير ناجح فنيا ، مهما كان مخلصا ، فعلا ، لقضية التقدم . ومن هنا ، فالفنان مطالب ليس فقط بالدعوة للتقدم وانما ، ايضا ، بكشف سحر وجمال عملية التقدم من جهة . وهو مطالب بأن يدخل الواقع ، من نقطة غير تلك التي يدخل منها الآخرون الواقع . وتناول مایاکوفسكي للواقع يختلف عن تناول بريخت ، ورؤية بريخت للواقع تختلف عن رؤية بابلو نيرودا .. وهكذا .. والقضية هنا ليست مسألة اختلاف في الاسلوب الخارجي ـ اللغة والموسيقى ـ وانما ايضا في الاسلوب الداخلي الفكري . من اية زاوية تدخل الواقع ، اية مادة تستخدم في مختبر العمل الابداعي ـ هذه قضية هامة ، بل وحاسمة ، في اعطاء العمل الفني الذاتية الخاصة ، الضرورية ، للفنان . والفنان الثوري مطالب بأن يغني ذاتيته بالثورية ، وان يغني ويجمل الثورية بما يمنحه لها من ذاته ،عند عملية الابداع الفني .

من هنا ، فليس صعبا كشف السخف والتزييف في محاولة تصوير النقاد البرجوازيين وكأن الادب الثوري اشبه ما يكون بمجموعة من الحجارة المصاغة طبقا لقوالب موحدة وتصوير المبدعين الثوريين وكأنهم يطرحون ذاتهم جانبا حين يرتبطون بقضية الثورة . ليس هنالك تزييف افظع من هذا لماهية الفن الثوري ، حيث تتفاعل وتندمج الذاتية مع الحركة العامة للمجتمع في تناسق جميل ، جديد ، هو الاساس لجمال الفن الواقعي الثوري .

وباعتزاز يمكن القول ان اجمل الاعمال الادبيةوالفنية للقرن العشرين قدمها للانسانية فنانون وكتاب اعطوا حياتهم للقضية الثورية . والاتجاه الواقعي الثوري في الادب والفن لا يخاف ولا يرفض « الاختلاف » في الشكل بين فنان وآخر ، بين فن بلاد وأخرى ، بين فن منطقة ومنطقة في العالم ، فهذا هو الامر الطبيعي .

القضية التي يؤكدها النقد الثوري ، دائما ، هي ضرورة ارتباط الفنان بالواقع وضرورة دراسته الثورية النقدية لهذا الواقع دراسة شاملة وضرورة تحسسه للقوى الصاعدة في المجتمع وارتباطه بها فكريا وعاطفيا .. وبعد هذا ، فليعط ما يريد وكيف يريد ، ولا بد ان يكون عطاؤه ثوريا .

سالم جبران

(عن مجلة « الجديد » ـ حيفا)

اللامنتمي

دراسة تحليلية لأمراض البشر النفسية في القرن العشرين

و

ما بعد اللامنتمي

«فلسفة المستقبل»

أشهر واعمق كتابين للكاتب الانكليزي المشهور

كولن ويلسون

صدرا في طبعتين جديدتين انيقتين

منشورات دار الآداب